الفصل التاسع والتسعون

ركوب البحر

والبحر في رأي علماء العربية الماء الكثير ، ملحاً كان أو عذباً ، وقد غلب على الملح فقط ، حتى قلّ في العذب . وهو خلاف البر[1] . وأطلق أهل العربية الجنوبية على البحر اللفظة نفسها التي نطلقها عليه ، فيقولون (بحرم) أي بحر . وقد ذكر البحر في معاهدة التآخي والأخوة (تاخين) التي عقدت في القرن الرابع للميلاد بين ملك الحبشة (جدرت) والملك (يدع اب غيلان) ملك حضرموت، لمقاومة ملك سبأ وذي ريدان[2] . وذكر في النص المعروف بنص (أبنة) ،حيث ورد : « وكل الت ذ بحرم ويبسم ومشرقم ومعربم » : ومعناه الحرفي : «وكل آلهة البحر واليابسة والمشرق والمغرب » . وقد ذهب (رودوكناكس) الى أن لفظة البحر تعني الجنوب ، وأن لفظة (يبسم) (يابس) (يَبْس) (يابسة) تعني الشمال ، وأن معنى الجملة المذكورة: «وكل آلهة الجنوب والشمال والمغرب»[3]. وقد وردت اللفظة بمعنى (بحر) في نص « Glaser 830 » ، حيث جاء : «ببحرم ويبسم وكل تشعث وزبد »[4] ، أي « ببحر ويابسة وكل العطايا والهدايا » .

---

١ تاج العروس (٣/٢٧) ، (بحر) .

٢ السطر الخامس عشر والسادس عشر من النص : Glaser 850.

٣ Rhodokanakis, Studi. Lexi., II, S. 10, 166.

٤ السطر الخامس عشر من النص ،
Rhodokanakis, II, S. 10, Mordtmann, Himj. Inschri., S. 21.

ووردت لفظة (اليم) في القرآن الكريم[1] ، ويراد بها البحر . وقد ذكر بعض علماء اللغة انها لغة سريانية[2] . وفي اللغة العربية ألفاظ أخرى مرادفة للبحر أيضاً ، منها (القَلَمَّس) ، و (الدأماء) ، و (الكافر) ، و (الحنبل) ، و (الخضم) ، و (العَيْلم) ، وغير ذلك من ألفاظ ترد في كتب اللغة[3] .

ولجزيرة العرب سواحل طويلة تحيط بها من جميع جهاتها الثلاث ، أما حدها الشمالي فهو أرض تتصل بالعراق وبلاد الشأم . وقد عرف أهل السواحل البحر وعركوه ، وعملوا على استغلال ثرواته قدر طاقتهم ، وتعاملوا مع أهل السفن الذين كانوا يقصدونها من مسافات بعيدة ، وركب جمع منهم السفن ، للاتجار مع السواحل المقابلة لهم . فباعوا في أسواقها واشتروا ، وقد أظهر أهل السواحل العربية الجنوبية والشرقية نشاطاً في ركوب البحر ، لا نجده عند أهل السواحل الغربية ، على ما يتبين من روايات أهل الأخبار .

ولتكوين رأي عن مدى وقوف الجاهليين على البحار وعلى مدى توغلهم فيها، وركوبهم أمواجها للتجارة أو للاستيطان في مواطن جديدة غريبة ، لا بد لنا من الرجوع إلى مراجع لتستحلب منها مادة نكوّن منها علمنا عن هذا الموضوع . والآثار هي أول ما يجب الرجوع اليه لاستخلاص هذه المادة ، ولكنها ويا للأسف شحيحة ، ليس فيها شيء كاف منها . وأما الموارد الأعجمية ، مثل الموارد المدونة باليونانية واللاتينية والسريانية،فلم تتحرش بموضوع العرب والبحار وبتجارتهم في البحر . وأما الموارد الاسلامية ، فهي بخيلة ، ليس فيها ما يفيدنا عن العرب والبحر غير نزر يسير يفيد ، ان أهل الجاهلية ، كانوا يكرهون ركوب البحر ، ويتهيبون منه ، وانهم لم يكونوا يملكون سفناً لعبوره،حتى ان المهاجرين الأولين من المسلمين ، لمّا هربوا من مكة إلى الحبشة ، ركبوا سفناً بدائية حبشية ، أوصلتهم إلى الحبشة ، وان الخليفة (عمر) كان يتهيب ركوب البحر ، وكان يوصي قوّاده بتجنيب جيوشهم مخاطره ، والابتعاد عنه قدر الامكان ، وبضرورة وضع أرض آمنة وراء الجيش ليكون في وسعهم الرجوع اليها عند المهالك والمآزق[4].

---

١ طه ، الآية ٣٩ ، ٧٨ ، ٩٢ ، القصص ، الآية ٧ ، الاعراف ، الآية ١٣٥ .
٢ المخصص (١٠/١٦٣) ، تاج العروس (٩/١١٤) ، (يمم) ، اللسان (٤/٤٢) ، (بحر) .
٣ راجع الالفاظ المذكورة في كتب اللغة والمعجمات .
٤ ارشاد الساري (٤/١٤ وما بعدها) .

وانه لمّا كتب إلى (عمرو بن العاص) ، يسأله عن البحر ، فقال : خلق عظيم يركبه خلق ضعيف ، دود على عود . كتب اليه (عمر) أن لا يركبه أحد طول حياته ، فلما كان بعد (عمر) لم يزل يركب حتى كان زمن (عمر بن عبد العزيز) ، فاتبع فيه رأي (عمر) . وكان منع عمر شفقة على المسلمين[1] .

وقد عرف العربي عند الأعاجم ببغضه للبحر وبخوفه منه وبابتعاده عنه . ورد في حكم (أحيقار) : « لا تُرِ العربي البحر ، ولا تُرِ الصيدوني (الصيداني) الصحراء »[2] . وذلك لاشتهار العربي عندهم بسكنه في البوادي وبابتعاده عن البحر ولاشتهار أهل (صيدا) بركوبه وبقهر أمواجه .

وإذا كنا قد فشلنا في الحصول على صورة مفصلة واضحة عن العرب والبحر من الموارد التي أشرت اليها ، وهي مادة المؤرخ في حصوله على مادته التأريخية ، فليس لنا من سبيل لتكوين صورة ولو باهتة عن الموضوع ، سوى الرجوع الى اللغة نستلهم من ألفاظها المتعلقة بالبحر وبوسائل ركوبه ، ما فات وروده في تلك المصادر . فاللغة كما نعلم مظهر من مظاهر الحياة العقلية والعملية لكل أمة ، وهي لم تخلق دفعة واحدة ، ولم يأخذها الخلف عن السلف كاملة ، وإنما خلقت بالتدريج وعلى قدر الحاجة ، فإذا ظهرت أشياء جديدة خلق المتكلمون بها لها ألفاظاً جديدة وإذا اندثرت أشياء ، فقد تندثر ألفاظها . واللغة مثل الناطقين بها في حياة وموت مستمرين . وإذا حصرنا الألفاظ التي أطلقها الجاهليون على البحر وعلى وسائل ركوبه وعلى ما فيه ، نستطيع اذن أن نعرف ماذا كانوا يعرفونه عنه وماذا كانوا يجهلون من أمره .

فلنأخذ الألفاظ المتعلقة بالبحر اذن سنداً لنا ، من لغتنا العربية نستنبط منها علم الجاهليين به ، مع العلم بأن هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم لا يمكن أن تؤدي المهمة على أحسن وجه ، لأنها لغة أهل برّ ، وليس لأهل البر علم أهل الساحل به . والأحرى بنا الاستعانة بلغات أهل السواحل في مثل هذه الدراسة ، لكننا لا نملك نصوصاً جاهلية مدوّنة بها ، حتى نستنبط منها ما نريد ، وليس في لهجات المسند عن البحر سوى نزر يسير ، ولكنا ما دمنا لا نملك وسيلة للإحاطة

---

١ ارشاد الساري (١٥/٤) .

٢ A. T. Olmstead, History of the Persian Empire, p. 326.

بعلم الجاهليين بالبحر سوى دراسة هذه اللغة ، فما علينا إلا أن نتتبع ما جاء فيها عنه ، وفي هذا الذي سنقف عليه تصوير لرأي المتكلمين بها بالبحر،وهو تصوير يمثل رأي أهل البرّ عنه .

يقال لشاطىء البحر (الساحل) في عربية القرآن الكريم ، وهو بمعنى ريف البحر وشاطئه[1] . وقد وردت اللفظة في كتاب الله[2] . وقد خصصت هذه اللفظة بالبحر ، أما شط النهر ، فقد عرف بـ (الشاطىء)[3] . ويقال للساحل أيضاً (السيف) و (سيف البحر)[4] . وذكر علماء اللغة ان (العيقة) ساحل البحر وناحيته[5] ، وان (العَدان) ، موضع كل ساحل . وقيل هو الساحل نفسه[6] . وذكر ان « السيف ساحل الوادي ، أو لكل ساحل سيف ، وانما يقال ذلك لسيف عمان »[7] . وورد ان (الطف) و (الطفطاف) ساحل البحر[8] .

و (القاموس) ، بمعنى معظم ماء البحر ، أو البحر ، أو أبعد موضع فيه غوراً ، ووسط البحر[9] ، ولجة البحر ، معظم البحر ، ومنه بحر لجيّ[10] ، و (الشرم) ، لجة البحر ، وقيل موضع ، وقيل هو أبعد قعره ، أو الخليج منه . وقد ذكر (أمية بن أبي الصلت (الشروم) في وصفه جهنم :

فتسمو لا يغيبها ضراء ولا تخبو فتبردها الشروم

والشرم ، مرسى من مراسي خليج السويس ، بينها ستة مراحل[11] .

و (العوطب) ، لجة البحر ، أو المطمئن بين الموجتين ، أو أعمق موضع

---

١ القاموس (٣/٢٩٤) ، (سحل) ، تاج العروس (٧/٣٧١) ، (سحل) .
٢ سورة طه ، الآية ٣٩ .
٣ المخصص (١٠/٢٠) ، القاموس (٣/٣٦٨) ، تاج العروس (١/٨٠) ، (شطأ) .
٤ القاموس (٣/١٥٦) ، المخصص (١٠/٢٠) .
٥ القاموس (٣/٢٧٥) ، تاج العروس (٧/٢٧٥) ، تاج العروس (٧/٣١) ، (عيق) .
٦ القاموس (٤/٢٤٧) ، تاج العروس (٩/٢٧٥) ، (عدن) .
٧ تاج العروس (٦/١٤٩) ، (سيف) .
٨ تاج العروس (٦/١٨٢) ، (طفف) .
٩ القاموس (٢/٢٤٣) ، تاج العروس (٤/٢٢٣) ، (قمس) .
١٠ القاموس (١/٢٠٥) ، تاج العروس (٢/٩٢) ، (لج) .
١١ تاج العروس (٨/٣٥٧) ، (شرم) .

في البحر[1] ، و (الدردور) موضع في البحر يجيش ماؤه ، قلما تسلم منه السفينة، ويخاف منه الغرق[2] . و (الخليج) ، وهو من البحر ، سمي بذلك لأنـــه يجذب من معظم البحر[3] ، والخور الخليج من البحر ، وقيل مصب المـــاء في البحر ، وقيل مصب المياه الجارية في البحر إذا اتسع وعرض ، وقيل : عنق من البحر يدخل في الأرض[4] ، والغبُ الضارب من البحر حتى يمعن في البر[5] .

وذكر علماء اللغة أن الجزيرة إنما سُمّيت جزيرة لانقطاعها عن معظم الأرض أو لما جزر عنه[6] . و (البضيع) ، الجزيرة في البحر ، والبحر نفسه[7] . وأمـا (الدبر) ، فقطعة تغلظ في البحر كالجزيرة يعلوها الماء وينضب عنها[8] .

والسفينة هي واسطة النقل على وجه الماء في الأنهار وفي البحـــار . وهي من الكلمات المعروفة في عربيتنا ، وقد أشير اليها في شعر عمرو بن كلثوم :

ملأنا البرّ حتى ضاق عنّا وموج البحر نملؤه سفينا[9]

وقد وردت لفظة (سفينة) و (السفينة) في القرآن الكريم[10] ، ويدل ذلك على انهـــا من الألفاظ التي كانت معروفة ومستعملة بهذا المعنى في أيام ظهور الاسلام .

وعبر عن السفينة بلفظة أخرى هي (الفُلك) ، وتقـع على الواحـد والاثنين والجمع . وقد وردت في مواضع متعددة من القرآن الكريم[11] . كما يعبر عنهـــا

---

١ القاموس (١/١٠٦) ، تاج العروس (١/٣٨٧) ، (عطب) .
٢ تاج العروس (٣/٢٠٥) ، (در) .
٣ القاموس (١/١٨٦) ، تاج العروس (٢/٣٤) ، (خلج) .
٤ تاج العروس (٣/١٩٢) ، (خار) .
٥ القاموس (١/١٠٩) ، تاج العروس (١/٤٠٣) ، (غب) .
٦ المخصص (١٠/١١) ، القاموس (١/٣٨٩) ، تاج العروس (٣/٩٨) ، (جزر) .
٧ القاموس (٢/٦) ، تاج العروس (٥/٢٧٨) ، (بضع) .
٨ القاموس (٢/٢٦) ، تاج العروس (٣/١٩٨) ، (دبر) .
٩ اللسان (١٣/٢٠٩ وما بعدها) ، (سفن) ، تاج العروس (٩/٢٣٦) ، (سفن) .
١٠ الكهف ، الآية ٧٢ ، ٨٠ ، العنكبوت ، الآية ١٥ .
١١ المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم (٥٢٦) ، اللسان (١٠/٤٧٩) .

بـ (مركب) ، والجمع مراكب[1] . ولو ان المركب كلمة عامة تطلق على كل ما يركب عليه ، فالدواب هي مركب أيضاً لمن يركبها ، غير ان (المركب) السفينة على سبيل التغليب والاصطلاح. وقد عبر القرآن الكريم عن السفن والمراكب بلفظة (الجاريات) و (الجوار) ، و(الجارية) كما في هذه الآية : « وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام » ، وكما في هذه الآية : « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام » ، وفي مواضع أخرى[2] . و (الجارية) المركب أيضاً ، صفة غالبة لأنها تجري على الماء[3] .

وقد وردت لفظة (الفُلك) بصورة خاصة تعبيراً عن سفينة نوح الواردة في الطوفان . ويذكر بعض المفسرين أن السفينة ، أي (الفُلك) ، كانت مصنوعة من خشب الساج ، وكانت (ذات ألواح ودُسُرْ) ، أي أن ألواحها قد التصقت بعضها ببعض بـ (دسر) وهي المسامير[4] .

وورد في القرآن الكريم : « والفلك التي تجري في البحر »[5] . وورد في الشعر :

جَوافِلَ في السراب كما استقلت فلوك البحر زال بها الشرير

والفلوك هنا جمع (الفلك) ، وأما الشرير ، فشجر البحر[6] . ويظهر من هنا أن (الفلك) هي سفينة من سفن البحر . وهي من السفن الكبيرة . وقد ورد في القرآن أيضاً (في الفلك المشحون) أي السفينة المشحونة المملوءة كما ورد : « حتى إذا كنتم في الفُلك وجرين بهم بريح طيبة » . وفي هذه الآية معنى مهم ، يدل على إحاطة الجاهليين بالبحر وركوبهم فيه ، وتسييرهم لها بفعل الرياح . وقد وردت في القرآن الكريم إشارات الى صنع الفلك والى سيرها مواخر في البحر .

---

١ اللسان (٨/٢٩٢) .
٢ سورة الشورى ، الآية ٣٢ ، والرحمن ، الآية ٢٤ ، والحاقة ، الآية ١١ ، اللسان (٨/٢٩٢) ، شمس العلوم (ح ١ ق ٧ ص ٣١٨) ، القاموس (٤/٣١٢) .
٣ تاج العروس (١٠/٧٢) ، (جرى) .
٤ قصص الانبياء (ص ٣٤) ، تاج العروس (٣/٣١٦) ، (دسر) ، Ency., II, p. 117.
٥ البقرة ، الآية ١٦٤ .
٦ المخصص (١٠/٢٣) ، القاموس (٢/٥٧) .

ويقال للسفينة : (البارجة) أيضاً ، والجمع (البوارج) . وذكر انها السفن الكبار ، وانها سفينة من سفن البحر تتخذ للقتال[1] .

و (القرقور) : ضرب من السفن ، وقيل : هي السفينة العظيمة أو الطويلة . والقرقور من أطول السفن . وجمعه قراقير . وفي الحديث : « فاذا دخل أهل الجنة الجنةَ ركب شهداء البحر في قراقير من درّ »[2] .

و (الخليّة) العظيمة من السفن ، والجمع خلايا . قال طرفة :

كأنّ حدوج المالكية ، غدوة خلايا سفين بالنواصف من دَدِ

وقال الأعشى :

يَكُبُّ الخليّة ذات القلاع وقد كاد جؤجؤها ينحطم[3]

وقيل هي التي يتبعها زورق صغير[4] .

وذكر ان من أسماء السفن الكبيرة (الخلج) . وقيل انها دون العدولية . وأما (الصلفة) فسفينة كبيرة ، و (الزنبرية) نوع من أنواع السفن الكبيرة[5] . و (القادس) : السفينة العظيمة ، وقيل صنف من أصناف المراكب ، أو لوح من ألواحها[6] .

وقد ضرب (لبيد بن ربيعة العامري) مثلاً بسفينة (الهندي) في طولها وعرضها وفي إحكام عملها ، عملها صانعها من صفائح مشبوحة ودهنها وسدّ المسافات التي تكون بين صفائح الخشب حتى لا ينفذ منها ماء البحر[7] . مما يدل بالطبع على وقوفه عليها وعلى شهرة تلك السفن في تلك الأيام .

---

١ اللسان (٢/٢١٣) ، القاموس (١/١٧٨) ، تاج العروس (٢/٧) ، (برج) ، المخصص (١٠/٢٦) .
٢ اللسان (٥/٩١) .
٣ اللسان (١٤/٢٤١) ، تاج العروس (١٠/١١٩) ، (خلا) .
٤ تاج العروس (١٠/١١٩) ، (خلا) ، القاموس (٤/٣٢٥) .
٥ المخصص (١٠/٢٥ وما بعدها) .
٦ القاموس (٢/٢٣٩) ، تاج العروس (٤/٢١٣) ، (قدس) .
٧ شرح ديوان لبيد (ص ١٤٢) .

وقد أشار بعض الكتبة من اليونان واللاتين الى نوع من السفن دعوه « Madarata » ؛ ذكروا أن ميناء(عمانه) « Omana » كان قد اشتهر ببنائه . وقد صنعت هذه السفن من الألواح المشدودة بالليف . وقد رأى بعض الباحثين أن هذه اللفظة من أصل عربي ، هو (مدرّعات) ، ويراد بها السفن المشدودة بدروع النخل . ورأى آخرون أنها من أصل « Mabarata » جمع(معبر)من أسماء السفن في لغة بني(إرم)[1].

وذكر علماء اللغة أن (المِعْبَر) ما عبر به النهر من فلك أو قنطرة أو غيره، والمعبرة سفينة يعبر بها النهر[2] . فالمعابر إذن من الوسائل المستعملة في عبور النهر على ما يظهر من شرح أولئك العلماء .

وقريب من هذا الوصف وصف نوع من السفن عرف بـ (العائم) . ذكر علماء العربية أنـه : عيدان مشدودة تركب في البحر ويعبر عليها[3] . وهو نوع بدائي بالطبع لا يمكن أن يقارن بالسفن التي كانت عند الرومان واليونان . و(الطوف) قرب ينفخ فيها ويشد بعضها الى بعض ، فتجعل كهيئة السطح يركب عليها في الماء ويحمل عليها المِرة والناس ، ويعبر عليها ، وهو الرمث . وربمـا كان من خشب والجمع أطواف . وذكر بعض العلماء أن الطوف التي يعـبر عليها الأنهار الكبـار تسوى من القصب والعيدان يشدّ بعضها فوق بعض ، ثم يقمط بالقمط حتى يؤمن انحلالها ثم تركب ويعبر عليها ، وربما حمل عليها الحمل على قدر قوته وثخانته ، ويسمى : (العامة)[4] .

والرمث خشب يضم بعضه إلى بعض كالطوف ويركب عليه في البحر . وفي الحديث ان رجلاً أتى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقـال : إنا نركب أرماثاً لنا في البحر ولا ماء معنا ، أفنتوضأ بماء البحر . فقال : هو الطهور ماؤه الحل ميتته . قال أبو صخر الهذلي :

---

١ العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ، تأليف جورج فضلو حوراني ، وترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر (ص ٦٠ ومـا بعدها) .

٢ اللسان (٤/٥٣٠) ، (عبر) .

٣ اللسان (١٢/٤٢٥) ، القاموس (٤/١٥٤) ، تاج العروس (٦/١٨٤) ، المخصص (١٠/٧٩) .

٤ تاج العروس (٦/١٨٤) ، (طوف) ، القاموس (٣/١٧٠) .

تمنيت من حبّي عُلَيَّةَ أننا على رمثٍ في الشرم ليس لنا وفر[1]

وذكر علماء العربية اسم نوع من السفن قالوا له : (البوصي) . وقالوا انه فارسي معرب ، وان الكلمة وردت في شعرٍ للأعشى[2] . وذُكر ان (البوصي) الملاح ، وقيل الزورق ، وان الكلمة معربة (بوزي)[3] .

وذهب بعض علماء اللغة إلى ان (العدولية) الواردة في قول طرفة بن العبد :

عدوليّة أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاّح طوراً ويهتدي

سفناً منسوبة إلى قرية بالبحرين يقال لها (عدولي) ، أو إلى قوم كانوا ينزلون هجر ، أو إلى عدول ، رجل كان يتخذ السفن[4] . ولا يستبعد ان يكون مراد الشاعر من السفن (العدولية) ، السفن القادمة من ميناء (أدولس) (عدولي) ميناء تجاري على ساحل الحبشة اشتهر بالتجارة قبل الاسلام .

ويظهر من شعر طرفة المذكور ، ان رجلاً اسمه (ابن يامين) كان تاجراً يملك سفناً ، وأن سفنه كانت تمخر العباب . وذكر أيضاً أنه كان بحاراً ، وورد (ابن نبتل) بدلاً من (ابن يامين)[5] .

وذكر علماء اللغة أن من أسماء المراكب المائية الصغيرة : الزورق والقارب والركوة . والزورق ، السفينة الصغيرة ، وقيل هو القارب الصغير[6] . و(الركوة) زورق صغير[7] .

وقد عرفت السفن المستعملة في القتال بأسماء خاصة ، منها البارجة ، وهي سفينة من سفن البحر تتخذ للقتال[8] .

---

١ تاج العروس (١/٦٢٥) ، (رمث) ، القاموس (١/١٦٢) ، (رمث) .

٢ مثل الفراتي ، اذا ما طما يقذف بالبوصي والماهر
تاج العروس (٤/٣٧٦) ، القاموس (٢/٢٩٦) ، المخصص (١٠/٢٣) ، بلوغ الارب (٢/٣٦٧) .

٣ تاج العروس (٤/٣٧٦) ، اللسان (٧/٩) .

٤ القاموس (٤/١٤) ، تاج العروس (٨/١١) ، (عدل) ، بلوغ الارب (٣/٣٦٥) .

٥ بلوغ الارب (٣/٢٦٥ وما بعدها) .

٦ تاج العروس (٦/٣٦٩) ، (زرق) .

٧ تاج العروس (١٠/١٥٥) ، (ركا) .

٨ المخصص (١٠/٢٦) ، القاموس (١/١٧٨) ، تاج العروس (٢/٧) .

والشراع هو (ماكنة) السفينة وقوتها المحركة الدافعة لها . ويقال له (القِلع) أيضاً[1] ، وجلّ كذلك[2] . وقد ذكر علماء اللغة ، أن الشراع كالملاءة الواسعة فوق خشبة من ثوب أو حصير مربوع وتر على أربع قوى ، تصفقه الريح فيمضي بالسفينة[3] . ويظهر من هذا الوصف أن أشرعة أهل الجاهلية كانت بسيطة ، ولم تكن متداخلة كأشرعة الروم . والشراع البسيط على النحو المذكور ، يكون ضعيفاً فاتر الهمة لا يتمكن من دفع السفن الكبيرة ، بل وقد لا يتمكن حتى من دفع السفن الصغيرة بسرعة ، بسبب صغر حجمه ، ثم إنه لا يتمكن من الاستفادة من قوة الريح ، ومن استخدام هذه القوة في توجيه السفينة بسرعة نحو هدفها، والسير بها في عرض البحر ، بينما يتمكن الشِراع المكون من عدة أقلعة ، من الاستفادة من الريح ، ومن دفع السفينة دفعاً سريعاً ، ومن حملها الى عرض البحر، فيقلص من المسافات ويبعدها عن أخطار لصوص البحر ، ولذلك لم تتمكن سفن أهل الجاهلية من مواجهة سفن الروم ومن تحديها ، حين دخلت سفنهم البحر الأحمر والبحر العربي والمحيط .

والدقل : سهم السفينة ، وهو خشبة طويلة تشد في وسط السفينة ، يمد عليها الشراع[4] . والجؤجؤ : صدر السفينة[5] ، و (المرنحة) : صدر السفينة كذلك[6] ، وعرف (الدقل) بـ (الدوقل) كذلك ، وتسميه البحرية (الصاري)[7] . و (الصاري) الملاّح أيضاً ، لحفظه السفينة[8] . و (القب) ، رأس الدقل ، و (القرية) ، خشبة مربعة على رأس القب[9] .

وأما الذي يعدل اتجاه السفن ويغير من اتجاهها ، فهو (السُكّان) ، وهو (الكوثل) أيضاً . وذكر أيضاً ان (السُكّان) ما تُسكّن به السفينة تمنع به

---

١ بالكسر ، اللسان (٨/٢٩٢) ، القاموس (٣/٧٤) .
٢ اللسان (١١/١٢١) ، (والجل بالفتح : الشراع) ، تاج العروس (٧/٢٦٠) ، (جلل) .
٣ تاج العروس (٥/٣٩٥) ، (شرع) .
٤ تاج العروس (٧/٣٢٣) ، (دقل) .
٥ تاج العروس (١/٤٩) ، (جأجأ) .
٦ تاج العروس (٢/١٤٧) ، (رنح) .
٧ اللسان (١١/٢٤٦) ، تاج العروس (٧/٣٢٣) ، (دقل) .
٨ تاج العروس (١٠/٢٠٩) ، (صرى) .
٩ اللسان (٢/٤٥٥) ، تاج العروس (٢/١٤٧) ، (رنح) .

من الحركة والاضطراب[1] . وذكر بعض علماء العربية ان (الكوثل) مؤخر السفينة، وفيه يكون الملاحون ومتاعهم[2] . والأغلب انه (السُكّان) ، ويعبر عنه بـ (الخيزرانة) كذلك[3] . وبلفظة أخرى هي (الدويطرة) . وقد عرفت بأنها كوثل السفينة[4] .

ويعرف سكان السفينة بـ (الخيزرانة) وبـ (الخيزران) . قال النابغة يصف الفرات وقت مدّه :

يظل من خوفه الملاّح معتصماً بالخيزرانة بعد الأين والنجد[5]

ويستعمل الملاحون (المجاديف) (المجاذيف) في تجديف السفينة[6] . و (المجداف) خشبة رأسها لوح عريض تدفع بها[7] . ويقال له (المقذف) و (المقذاف) أيضاً[8] . ولم يتطرق علماء اللغة ولا أهل الأخبار إلى عدد (مجاديف) السفينة الواحدة ، أي إلى عدد رجالها الذين كانوا يجدفون بالمجاديف . فالسفن الكبيرة الضخمة تحتاج إلى عدد من المجدفين ، قد يبلغون العشرات . وقد كانت سفن الروم ، ذات طابقين بالنسبة للمجدفين ، فيجلس عدد منهم في الطابق الأسفل ، ويجلس فوقهم عدد آخر من المجدفين ، لتسير السفينة بسرعة ، وقد استخدموا هذه الطريقة في سفنهم الحربية بصورة خاصة ، لأنها سفن ، يجب ان تعتمد على السرعة وعلى خفة الحركة لتتمكن من التغلب على سفن الأعداء .

وأما (المُردي) ، فخشبة يدفع بها الملاّح السفينة . وذلك كي يحركها عند

---

١ اللسان (١٣/٢١١) ، قال طرفة :
كسكان بوصي بدجلة مصعد .
٢ اللسان (١١/٥٨٣ وما بعدها) .
٣ قال الاعشى :
من الخوف كوثلها يلتزم
اللسان (١١/٥٨٤) .
٤ اللسان (١١/٥٨٤) ، (٢/٤٥٥) .
٥ اللسان (٤/٢٣٨) .
٦ بالدال والذال جميعا ، لغتان فصيحتان .
٧ اللسان (٩/٢٣) .
٨ اللسان (٩/٢٧٧) ، القاموس (٣/١٢٢) ، تاج العروس (٦/٥٤) ، (جدف) ، (٦/٢١٨) ، (قذف) .

الشواطىء والسواحل حيث تكون المياه ضحلة[1] . والقيقلان خشبة يدفع بها السفينة أيضاً[2] .

ويقال للذي يشتغل في السفينة ويعمل على تسييرها (الملاّح) ، ويقال لـه (صار) و (الصاري) أيضاً[3] . وحرفته (الملاحة) . ويقال للملاّح : (السفّان) كذلك ، وهو الـذي يشتغل في السفن ، ويعبر عنه بـ (النوتي)[4] . والجمع (نوتية) و (نَوّاتين) . « وفي حديث علي ، كرم الله وجهه : كأنـه قلع داريّ عنجه نوتية » . وورد أن (النوتي) البحار ، وهو من كلام أهل الشأم[5] ، واللفظة من أصل يوناني[6] .

و (الربّان) ، أو (ربان السفينـة) ، هو قائدها الذي يجريها . ويرى علماء اللغة أنها دخيلة معربة[7] .

ويقال للموضع الذي ترفأ اليه السفن (المرفأ) . من أصل (رفـأ) بمعنى أدنى . وورد في حديث (تميم الداري) : « أنهم ركبـوا البحر ثم أرفأوا الى جزيرة »[8] . ويعبر عن (المرفأ) بلفظة (الكلاّء) و (المُكلا) أيضاً . لأنه يكلأ السفن من الريح ، وذلك بحبس السفن فيه لحمايتها من الريح ولإنزال مـا فيها ، وأخذ ما فيه من تجـارة وناس[9] . ويقال للمرفـأ (الميناء) كذلك ، وعرفوه بأنه الموضع الذي ترفأ فيه السفن[10] . كما يقال له : (فرضة)

---

١ اللسان (٣/٤٠٢) ، القاموس (٤/٣٣٤) ، تاج العروس (١٠/١٤٨) .
٢ بلوغ الارب (٣/٣٦٦) .
٣ اللسان (١١/١٢١) ، (١٤/٤٦٠) .
٤ اللسان (٢/٦٠٠ وما بعدها) .
٥ اللسان (٢/١٠١) .
٦ غرائب اللغة (٢٧١) .
٧ اللسان (١٣/١٧٥) .
٨ اللسان (١/٨٧) ، « وفي حديث أبي هريرة في القيامة ، فتكون الارض كالسفينة المرفأة في البحر تضربها الامواج » ، تاج العروس (١/٧١) ، (رفأ) .
٩ اللسان (١/١٤٦) ، تاج العروس (١/١١٢) ، (كلأ) ، « سوق الكلأ » بالبصرة ، موضع يكلئون سفنهم به ، أي يحبسونها .
١٠ اللسان (١٣/٤٢٦) ، (ميني) ، كل مرسى السفن ، تاج العروس (٩/٣٥٥) ، (مـان) .

و (فرضة البحر)[1] و (المَرْساة) ، البقعة التي ترسو فيها السفينة[2] .

ومن مصطلحات السفن في العربية ، الشحن ، فيقال شُحنت السفينة شحناً بمعنى ملئت ، ومخرت السفينة ، أي جرت[3] . وحبت السفينة ، أي جرت[4] ، وجنحت السفينة جنوحاً إذا انتهت إلى الماء القليل فلزقت بالأرض فلم تمض ، وجمحت جموحاً إذا تركت قصدها فلم يضبطها الملاحون ، ويقال ماهت السفينة إذا دخل فيها الماء ، ورست وأرست ، إذا بلغ أسفلها القعر فثبتت، وإذا أرسيت وسخرت أطاعت وطاب لها السير ، وحدرت السفينة أحدرها، وتقاذفت في البحر جرت ، وشجّت البحر قطعته[5] . وهناك مصطلحات عديدة أخرى يشير ورودها في اللغة إلى معرفة في البحر وفي استخدام السفن في البحار .

وعند دنوّ السفينة من الأماكن التي تريدها ، ترسو في مرفأ لتفرغ حمولتها أو لتحميلها أو لتزود بما تحتاج اليه من زاد وطعام ، فتلقي بمراسيها في المرفأ تثبيتاً لها فلا تتحرك ولا تأخذها الأمواج ولا الرياح . ويسمي الملاحون المِرساة (الأنجر) ، ويكون من الخشب الصلب الثقيل أو حديداً أو حجراً كبيراً ، وقد يكون على شكل كرة ، وقد يكون على شكل مربع أو مستطيل ، أو على شكل (خطّاف) ، أو حديد محجن[6] . فإذا أرادت السفينة الرسو أنزل إلى الماء ليستقر على القاع فتثبت السفينة[7] . وقد وصف (الأنجر) ، انه خشبات يخالف بينها وبين رؤوسها وتشدّ أوساطها في موضع واحد ، ثم يفرغ بينها الرصاص المذاب فتصير كصخرة ، ورؤوس الخشب ناتئة تشد بها الحبال وترسل في الماء إذا رست السفينة ، تعريب لنكر من أصل فارسي[8] .

وقد ذكر علماء اللغة أن (السابجة) ، هم قوم من السند يستأجرون ليقاتلوا، وكانوا قوماً جلاوزة وحرّاس السجن في البصرة أيام الإسلام . وكان رئيس السفينة

---

١ اللسان (٢٠٦/٧) .
٢ القاموس (٣٣٤/٤) ، تاج العروس (١٤٩/١٠) ، (رسا) .
٣ القاموس (١٣١/٢) ، (نحر) .
٤ تاج العروس (٨١/١٠) ، (حبو) .
٥ المخصص (٢٣/١٠ وما بعدها) .
٦ تاج العروس (٥٥٧/٣) ، (نجر) .
٧ تاج العروس (١٤٩/١٠) ، (رسا) .
٨ تاج العروس (٥٥٧/٣) ، (نجر) .

البحرية يستأجرهم ليكونوا معه يبذرقونها ، أي يخفرونها ويقاتلون من يتصدى لها بسوء [1] . وقد كانت بالأبلة التي عاشت قبل البصرة جاليات جاءت اليها من الهند، فقد كان الاتجار بين الهند وجنوبي العراق وسواحل جزيرة العرب اتجاراً قديماً ، وقد أقامت جاليات أخرى منها في مواضع من هذه السواحل ، وقد أشرت الى عثور العلماء على هياكل بشرية بأرض عمان ، تمثل (الدرافيديين) ، أي سكان الهند القدامى ، والى وجود أثر لملامح هندية في سكان ساحل عمان تظهر عليهم حتى اليوم .

وصناعة السفن الكبيرة تحتاج الى أخشاب صلدة قوية والى مسامير من حديد تستعمل في ربط الألواح والأخشاب بعضها ببعض ، والى أيدي فنية عاملة ، وعلم بهندسة بناء السفن . ولم تتيسر هذه الأشياء في جزيرة العرب . فالخشب الصالح لبناء السفن غير موجود في أكثر أنحائها ، ولهذا اقتصرت صناعة السفن على السفن الصغيرة في الغالب ، وهي سفن ليس في مقدورها اختراق آفاق البحار الكبيرة والمحيطات ، والتجول بحرية في أية ناحية كانت من نواحي البحر الواسعة. ولم يكن لها إلاّ السير في محاذاة السواحل ، وهو سير يكلفها كثيراً ، فعلى السفن أن تقطع مسافات طويلة معرضة نفسها لمخاطر الاصطدام بالصخور الكامنة في المياه ولهجمات لصوص البحر الجائعين وللجوء الى مراسي كثيرة طلباً للماء العذب والزاد، ولتمضية وقت طويل ، على حين لا تحتاج السفن الكبيرة الى كل ذلك ، فهي قادرة بفضل متانتها وقوة صنعها من اختصار المسافات وتقصير الوقت وحماية نفسها من هجمات لصوص البحر باستخدام الرياح البحرية ، وقطع البحر باستقامة وبحُرية الى أي ميناء يريده الربان .

وكان على أصحاب معامل السفن العرب استيراد الخشب القوي الصالح لبناء السفن من الخارج ، أو شراء السفن جاهزة من الأسواق الخارجية ، وفي كلتا الحالتين يتكلف المشتغلون بالتجارة البحرية تكلفاً باهظاً ، ويكونون عالة في قوتهم وفي أعمالهم على الخارج . وهذا ما سهّل للرومان واليونان والفرس مزاحمة الدول العربية الجنوبية في البحر الأحمر وفي المحيط الهندي ، ومن إنزال خسائر فادحة في ثروة العرب ، أثرت أثراً كبيراً في الأوضاع السياسية والاقتصادية لجزيرة العرب،

---

١ اللسان (٢/٢٩٤) ، (١٠/١٤) .

كما أثرت عليها من الناحية العسكرية إذ جعلت السواحل مكشوفة مفتوحة من الوجهة الحربية فأنزلت الدول الكبرى في مواضع منها قواتاً لحماية مصالحها التجارية وقوافلها البحرية وذلك قبل الميلاد وبعد الميلاد إلى ظهور الاسلام .

والساج من أثمن الأخشاب وأنفسها في صناعة السفن، فهو خشب مقاوم صلب، وقد استورد من الهند[1] . ويظهر انه هو الخشب الذي ذكر (ثيوفراستوس « Theophrastus » ، انه كان بجزيرة (تيلوس) « Tylus » ، ويقصد بها البحرين، والخشب الذي كان في ميناء (عمانة) عمان الذي أشار اليه صاحب مؤلف (الطواف حول البحر الأريتري) ، والذي ذكر انه خشب مستورد من ميناء (بريجازا) بالهند[2] .

وقد صنع الجاهليون سفنهم وقواربهم بأيديهم ، مستعينين بالخشب المستورد وبالخشب المحلي . صنعوها في مواضع متعددة من سواحل جزيرة العرب، ولا سيما على سواحل الخليج ، حيث تيسر لسكانها استيراد الخشب الصالح لبناء السفن من الهند . وهي صناعة لا تزال حية ، إلا ان الهرم بدأ يظهر عليها ، وأخذت تتقلص ، وأوشكت على توديع الدنيا ، لتراكم الأمراض عليها ، ولعجزها عن مد نفسها بمقومات الحياة الملائمة لعصر السرعة .

وتتكون السفن الكبيرة الجيدة من سقائف ، وهي ألواح السفينة . وكل لوح سقيفة[3] . وقيل إن اللوح من ألواح السفينة ، هو القادس[4] . وأما ما بين كل خشبتين من السفينة ، فيقال له الطائق[5] . وتخرز السفن بالليف ، ويجعل في خللها القار[6] . والجلفاظ الذي يجلفظ السفن ، وهو أن يدخل بين مسامير الألواح ، وخروزها مُشاقة الكتان ، ويمسحه بالزفت والقار[7] . وقد تطلى السفن بالقار ، وتدسر . ويراد بالدسر المسامير لغاية التسمير والتدسير[8] . ويقال للموضع الذي يجتمع

---

١ القاموس (١/١٩٥) ، تاج العروس (٢/٦١) .
٢ حوراني (ص ٢٤٤ وما بعدها) .
٣ القاموس (٣/١٥٢) .
٤ القاموس (٢/٢٣٩) ، تاج العروس (٤/٢١٣) .
٥ القاموس (٣/٢٦٠) ، « طوق » .
٦ المخصص (١٠/٢٥ وما بعدها) ، القاموس (٢/١٢٤) ، تاج العروس (٣/٥١٢) .
٧ القاموس (٢/٣٩٤) ، القاموس (٢/٣٥٣) .
٨ القاموس (٢/٢٩) ، تاج العروس (٣/٢٠٦) .

فيه الماء الراشح جمّة المركب[1] .

ولم ترد في نصوص المسند المصورة صورة سفينة نهتدي بها الى معرفة أشكال السفن عند العرب الجاهليين . كذلك لم يعثر المنقبون حتى الآن على صورة لها في النصوص التي ظُفر بها في أماكن أخرى من جزيرة العرب . ولا يستبعد أن تكون سفن العرب أنواعاً متعددة ، بحسب أغراضها ووفرة الخشب الصالح لبناء السفن، وعلى قدر اختلاط سكان سواحل الجزيرة بغيرهم من أصحاب السفن . ولا أستبعد أن يكون أهل العربية الجنوبية والعربية الشرقية قد تأثروا بصناعة السفن اليونانية والساسانية والهندية والافريقية لاختلاطهم بهم ، ومجيء سفن هؤلاء الى مراسي السواحل العربية ، ولتمكنهم من شراء الخشب الصلد الصالح لبناء السفن من افريقية والهند .

ولم تتمكن سفن ذلك اليوم ، وحتى أعظمها وأكبرها من مناطحة عواصف البحار ومقاومة أمواجها ، فكثرت أمراضها وعللها ، وفي جملتها الخروق التي كانت تصيب مواضع اتصال ألواحها ، فتفكك أوصالها فتهلك، ويتعرض أصحابها إلى خسائر كبيرة . أضف إلى ذلك تعرضها إلى تحرش لصوص البحر بها ، الذين كانوا يترصدون السفن ، فإذا وجدوا فرصة مناسبة ، هاجموها لأخذ ما قد يقع في أيديهم من حمولتها النفيسة . ولهذا كانت أجور نقل التجارة بالسفن عالية ، لتعوض عن خسائر السرقة والغرق ، ثم إن أجواف تلك السفن كانت صغيرة ، لا تتحمل حملاً كثيراً ، فصار أصحابها لا يحمّلونها إلا السلع الغالية التي لا تحتاج الى مكان كبير والتي تتحمل أرباحها دفع الأجور الغالية عن نقلها الى المواضع التي يراد ايصالها اليها .

ولا يتسع هذا المكان لذكر كل الألفاظ والمصطلحات التي لها علاقة بالبحر ، فهناك أسماء لمختلف أنواع السفن ، وأسماء أدوات كثيرة استعملت في السفن ، وأسماء للساحل وللجزر وللنباتات البحرية وغير ذلك وردت في كتب اللغة ، واليها يجب ان يرجع من يريد المزيد من هذه الألفاظ والمصطلحات ، غير ان علينا ان ننتبه الى ان في هذه المصطلحات ، مصطلحات عديدة دخلت العربية في الاسلام .

وتفيدنا هذه الألفاظ والمصطلحات فائدة كبيرة في الوقوف على مدى تأثر البحرية

---

١ القاموس (٤/٩١) .

العربية الجاهلية بالبحرية الأجنبية ، وذلك بدراسة أصول هذه الألفاظ والمصطلحات لمعرفة المكان الذي جاءت منه والشعب الذي موّن البحّارة العرب بها .

ونجد في مصطلحات البحر ألفاظاً يونانية ، وألفاظاً لاتينية ، وألفاظاً فارسية ، وألفاظاً حبشية،ودخول هذه الألفاظ اللهجات العربية دليل على تأثر البحرية العربية ببحرية تلك الأمم واتصالها بها وأخذها منها . وقد أشار علماء اللغة الى أصول بعض هذه الألفاظ ، فذكروا انها أعجمية . ولمّا كان علمهم باللغات الأعجمية غير الفارسية محدوداً ، لم يتمكنوا من تشخيص أصول بعض المصطلحات المعربة عن اليونانية أو اللاتينية أو الحبشية أو الهندية ، فرجعوها الى أصل فارسي في الغالب، وهي ليست من الفارسية في شيء .

ولم يرد في الكتابات الجاهلية ما يفيد بدخول أهل العربية الغربية البحار ، والأخبار الإسلامية لا تشير الى ذلك أيضاً ، بل الذي يفهم منها أن أهل الحجاز لم يكن لهم نصيب في البحر ، وأنهم كانوا يركبون البحر في سفن حبشية توصلهم الى السواحل الافريقية للاتجار هناك . ولما خرج المسلمون الأولون مهاجرين الى الحبشة ، انتهوا الى (الشعيبة) ، فوجدوا سفينتين للتجار حملوهم فيها الى أرض الحبشة بنصف دينار[1] . و (الشعيبة) ، مرسى السفن من ساحل بحر الحجاز ، وكان مرسى مكة قبل جدة[2] .

ونجد في خبر عودة المهاجرين من الحبشة ، أنهم حملوا في سفينتين ، حملهم عليها النجاشي . أي أن السفينتين كانتا من سفن الحبش[3] . ولم يرد في الخبر ، اسم الموضع الذي أبحروا فيه منه الى الحجاز،ولا اسم المرسى الذي رست السفينتان فيه ، واتجه المسلمون منه الى يثرب .

ويظهر أن تلك السفن كانت صغيرة مكشوفة الجوانب ولم تكن تتسع لعدد كبير من المسافرين ، حتى أن حركات المسافرين كانت تؤثر فيها . روي أن (جعفر بن أبي طالب) ، سأل رسول الله كيف نصلي في السفينة إذا ركبنا في البحر ، فقال : صلّ قائماً إلا أن تخاف الغرق ، أو يصلي قائماً إلاّ أن يضر بأهلها . وصلى أنس في السفينة جالساً[4] .

---

١ الطبري (٢/٣٢٩) .
٢ تاج العروس (١/٣٢١) ، (شعب) .
٣ الروض الانف (٢/٢٥٠ وما بعدها) .
٤ الروض الانف (١/٢١٥) .

ومما يؤسف له أن أهل الأخبار لم يذكروا أسماء المواضع التي كان يتاجر معها العرب على السواحل الافريقية المقابلة ، ولم يذكروا حتى أسماء المرافىء التي نزل بها المهاجرون المسلمون الأولون من مكة عـلى ساحل الحبشة ، ولا اسم الموضع الذي نزل به وفد (قريش) الى الحبشة ، الذي جاء لتحريض الحبش على من هاجر اليهم من المسلمين ، ولم يذكروا كذلك اسم الموضع الذي أبحر منه المسلمون للعودة الى الحجاز ، يوم أرسل الرسول (عمرو بن أميّة الضمري) ليعود بهم الى يثرب ، ولا اسم الموضع الذي نزلوا به من ساحل الحجاز[1] .

١ الروض الانف (٢/ ٢٥٠ وما بعدها) .

obeikandl.com